الفصل الأول

جنكيز خان وحكام المسلمين

قياس مغلوط

* رحم الله رجلاً عرف زمانه، فاستقامت طريقته.

نعم، لن يستقيم الطريق بغير معرفة بالزمان .. ولن يرشد المسير إلا ببصيرة واعية بحقيقة الواقع.. وما أحوج العاملين للإسلام إلى تلك البصيرة الواعية .. وما أرشد خطوات سيرهم حين يحيطون علمًا بشريعتهم وبالواقع من حولهم.

فالعاملون للإسلام لا يفتقرون إلى الصدق والإخلاص والجدية، بقدر افتقارهم إلى الوعى السليم، والفهم الدقيق للواقع المحيط.

إن مما يحزن القلب ويدمى الفؤاد أن يخطئ الشباب المسلم في تحليل مكونات واقعه .. وأن يعجز عن تحديد ملامح الواقع الذى يعيش فيه كما هو على الحقيقة ..

فحينئذ تتبعثر الجهود، وتذهب الطاقات العظيمة أدراج الرياح .. والسبب أن أصحابها رسموا للواقع صورة مغايرة .. ومن ثم فقد تعاملوا معه بطريقة أخرى غير التى تصلح له ..

تمامًا كما يغرس الفلاح غراسه فى أرض لم يعرف حقيقتها .. ولم يدرس خصوبتها أو يحدد درجة ملوحتها .. فهو يضنى نفسه فى وضع البذور، ويتعهدها بالسقاية والرعاية .. ثم يفاجأ بذبول غرسه فى النهاية .. ولو أنه تعرف على تلك الأرض التى سيزرعها أولاً لما حدث ما حدث . ولكان ذلك أوفر لجهده ووقته وطاقته.

وفى محاوله لتحديد الواقع الذى نحياه .. فقد شاع بين بعض الشباب المسلم مقارنة أحوال المسلمين اليوم بحال التتار.

وذهبوا إلى تشبيه حكام المسلمين اليوم بهولاكو وجنكيزخان.

وكذلك تشبيه القوانين المعمول بها فى الدول العربية والإسلامية بالياسق.

وقد عضد أصحاب هذا الرأى رأيهم ببعض الفتاوى القديمة نسبيًا، والتى أصدرها علماء أجلاء مثل فضيلة الشيخ أحمد شاكر ، والأستاذ يوسف العظم رحمهما الله وغيرهما ..

ففى معرض حديثه عن القوانين المعمول بها فى بلاد المسلمين فى عصره، وصفها الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - بـ «الياسق العصرى» . كما وصف حال المسلمين فى زمانه بأنه : «أسوأ حالاً، وأشد ظلمًا وظلامًا من التتار»[1].

أما الأستاذ يوسف العظم - رحمه الله - فقد قال معلقا على كلام الإمام ابن كثير عن التتار، وعن كتاب الياسق مامعناه : «.. ألا يصور هذا واقع ديار المسلمين اليوم، فكم من ياسق فيها وكم من جينكزخان .. حيث وضع كل قائد شرعة، واتخذ كل بلد ميثاقًا».

* ومع عظيم تقديرنا واحترامنا لهؤلاء العلماء .. ولجميع علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، فهذه الفتاوى هى اجتهاد بشرى غير معصوم ولا مقدس.

كما أنها صدرت فى زمان سابق لزماننا، ربما كانت له ظروفه وملابساته.

وليس لأحد من المسلمين أن يجعل من اجتهاد عالم - أيًّا كان فضله ومنزلته - حاكمًا على الشريعة .. أو ينصبه قيمًا على الواقع المتغير.

وليس معنى صحة الفتوى فى زمانها أنها تصح لكل زمان ومكان.

والمهم أننا الآن أمام مقارنة بين واقعين فى زمنين مختلفين .. واقع التتار، وواقع المسلمين فى هذه الأيام .. ويراد منا قياس أحد الواقعين على الآخر.

وقد ذكر علماء الأصول شروطًا للقياس لا يصح القياس بدونها .. فمن هذه الشروط: توفر العلة الجامعة بين الحالين أو الواقعين، والتى تصلح لأن تكون سببًا مقبولاً لقياس أحدهما على الآخر .. ولا يكفى توفر أى علة للقياس حتى تكون علة مؤثرة .. وهى التى لأجلها كان هذا الحكم .. فلو توفرت العلة الجامعة المؤثرة بين المقيس وبين المقيس عليه، فقد صح القياس والضبط .. وإلا، فهو قياس خاطئ مغلوط، أو ما يسميه العلماء: «قياسًا مع الفارق».

---

(١) عمدة التفسير (١٧١/٤) .. وينبغى ملاحظة أن هذا الكلام صدر عن الشيخ أحمد شاكر فى أواسط الخمسينيات من القرن الماضى .. أى قبل ما يزيد علي نصف قرن من الآن .. ولا شك أن هذا الفارق الزمنى الكبير نسبيًا يطرح التساؤل حول صحة تنزيل هذه الفتوى على واقعنا اليوم.

وحين يريد البعض نقل الفتاوى التى قيلت فى التتار إلى واقعنا، لا يمكننا موافقته إلا إذا حدث تطابق بين الواقعين .. وإلا وضعت الفتوى فى غير محلها .. ونزلت أحكام الشريعة على غير أهلها.

فتعالوا بنا نعقد مقارنة موضوعية بين الواقعين .. ونتجرد قدر الإمكان من قناعاتنا المطلقة، وأحكامنا المسبقة فى هذه القضية .. ونترك القول الفصل لإجابة هذه التساؤلات.

هل حقًا ما يردده البعض من أن حكام بلاد المسلمين اليوم مثل جنكيز خان وهولاكو، وغيرهم من طغاة ملوك التتار؟!

وهل حقًا أن القوانين التى تحكم بلاد المسلمين اليوم، والدساتير الموجودة فى دولتهم تشبه الياسق الذى وضعه جنكيزخان لأتباعه ليكون شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهل حقًا واقع المسلمين اليوم وحال جيوشهم وجنودهم أشبه ما يكون بأحوال التتار وجنودهم ومعسكرهم الذى وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؟!

ولكننا قبل الإجابة عن هذه الأسئلة نود تأكيد حقيقتين مهمتين:

الأولى: أننا نعتقد وجود كثير من جوانب الخلل والقصور فى واقع المسلمين اليوم .. سواءً على مستوى الأفراد والجماعات أو على مستوى الدول والحكومات .. هذه حقيقة بدهية لا نظن أحدًا ممن يحمل هموم أمته ودينه ووطنه يجادل فيها.

كما نعتقد أن هناك مفقودًا من شرائع الإسلام، نسأل الله تعالى أن يمنّ على المسلمين بعودته وتحقيقه .. وأن يجند له جهود المخلصين من أبناء الأمة حكامًا ومحكومين.

هذا المفقود من شرائع الدين يحتاج إلى صبر وأناة .. ويفتقر إلى حكمة تحمل أصحابها على الحفاظ على الموجود من شرائع الدين بقدر سعيهم إلى تحقيق المفقود منها.

وبناءً على ذلك يخطئ من يظن أننا - حين نعقد تلك المقارنة - راضون بأى قصور فى تنفيذ أوامر الله أو تطبيق شرائعه .. فنحن نبرأ إلى الله من هذا القصور، لا في حق الحكومات فحسب ..

بل فى حق المحكومين أيضًا أفرادًا وجماعات.

الثانية: أن ديننا قد علمنا العدل .. وغرس فى نفوسنا الإنصاف كمسلمين .. وهو يأمرنا دومًا بالتزام الموضوعية والتوازن عند الحكم في أي قضية ويحثنا على أن نبدأ طريق البحث من أوله لا من آخره .. من المقدمات السليمة والمعطيات الدقيقة نحو الوصول للحكم السديد فى نهاية المطاف.. بحيث ترتكز القناعات والتصورات على أساس راسخ من البحث العلمي المتزن.

أما أن تؤسس الأحكام على العواطف الجياشة وإن كانت مخلصة .. أو تبنى التصورات على الحماسة الملتهبة وإن كانت صادقة ..

فسرعان ما سينكشف ضعفها وعدم رسوخها مع أول اختبار .. وقد تسقط وتنهار على بساط البحث والمناقشة.

.. بين جنكيز خان .. وحكام اليوم.

*ولكى يتضح لنا مدى دقة قياس حكام اليوم على جنكيزخان ملك التتار .. فلسوف نبدأ إجابتنا بعرض تاريخى موجز لأحوال ذلك الطاغية كما ذكرها الإمام ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية[1] .. وملخصها كالتالى:

كان چنكيزخان هو السلطان الأعظم عند التتار، وكان ملكًا كافرًا مشركًا بالله لم يدخل يومًا فى دين الإسلام .. بل كان يزعم، وتزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس .. وكان يزعم أتباعه أنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا..

وضع جنكيزخان لأتباعه شريعة تسمى الياسا (الياسق) يتحاكمون إليها، ويحكمون بها . . وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه .. وهي شىء اقترحه من عند نفسه، وتبعه التتار فى ذلك.

كان جنكيزخان يزعم أن الوحى ينزل عليه، وكان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مرارًا حتى يعيى ويقع مغشيًّا عليه .. ويأمر من عنده ان يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ.

كان يستحسن من أتباعه ورعيته أن يعرضوا عليه الفتيات الجميلات قبل أن يتزوجن .. فيختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن ليرتكب هو وحاشيته الفاحشة معهن.

كان مشهورًا بالخيانة والغدر الشديد فى حروبه .. وكان كثيرًا ما يمنح أهل بلدة الأمان حتى يدخلها ثم يغدر بأهلها، ويقتل من فيها من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم.

كان يعتمد فى حروبه نظرية «الإبادة الجماعية» .. فكان يأمر جنوده بقتل جميع سكان البلاد التى يدخلونها .. ولم يكن يكتفى بالمقاتلين فقط .. بل يقتل المدنيين المسالمين أيضًا من الشيوخ والأطفال والنساء.

وبالجملة فقد ارتكب جنكيزخان من الأهوال والفظائع ما تقشعر له الأبدان .. ويشيب لهوله الولدان .. وقتل على يديه وأيدى جنوده ملايين المسلمين .. ونحسب أن هذا الطاغية العتيد لو

---

(١) من أراد المزيد من أحوال التتار وملوكهم .. راجع البداية والنهاية جـ ١٣ أحداث الفترة (٦١٦ هـ - ٦٥٨ هـ) ط. مكتبة الإيمان بمصر.

امتلك من أسلحة الدمار ما تملكه أصغر دول العالم اليوم لما أبقى على ظهر الأرض رجلاً يسجد لله سجدة .. ولا امرأة تسبح لرب العالمين .. ولا طفلاً يتلو آية من آيات القرآن الكريم.

- ولم يكن «هولاكو» الحفيد بأحسن حالاً من جده الطاغية .. فقد كان أعظم منه بغيًا وعدوانًا.. ويكفى ما أورده ابن كثير - رحمه الله - فى وصفه حيث قال: «وقد كان هولاكو ملكًا جبارًا فاجراً كفارًا لعنه الله .. قتل من المسلمين شرقاً وغربًا ما لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم .. وسيجازيه على ذلك شر الجزاء .. وكان لا يتقيد بدين من الأديان[1].

فهذا غيض من فيض طغيان ملوك التتار .. ونبذة مختصرة عن بطشهم بالعباد والبلاد .. وكفرهم الشديد برب الأرض والسماوات ..

وهنا يحق لنا أن نتساءل :

هل من الإنصاف والعدل قياس حكام بلاد المسلمين اليوم على أمثال هؤلاء ممن لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً .. ولم ير العالم لجبروتهم وطغيانهم نظيرًا؟!

وهل هناك حاكم من حكام المسلمين اليوم لا يتقيد بدين من الأديان؟! أو يزعم أن الوحى يتنزل عليه من السماء؟!

ومن منهم قد ادعى أنه ابن الله - والعياذ بالله - ؟! أو اعتاد أن يصطفى لنفسه من نساء المسلمين أبكارهم ليرتكب معهن الفاحشة؟!

بل أى حكام المسلمين اليوم قد وضع للناس شريعة من مجرد نظره وهواه لا تمت للدين بصلة وألزمهم بالتحاكم إليها ورد ما عداها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟!

وهل منهم - أى حكام المسلمين اليوم - من يضفى على أحكامه صفات العصمة، ويحيطها بهالات من التقديس بزعم أنها من وحي السماء .. وأنه لا يحق لأحد من شعبه أن يخالف منها أمرًا، أو يبدى عليها اعتراضًا؟!

---

(١) البداية والنهاية (٢٣١/٣٣) ط مكتبة الإيمان.

إن إجابة هذه التساؤلات السابقة كفيلة ببيان فساد هذا القياس ..

فحكام المسلمين اليوم - رغم ما يعتريهم من تفريط وقصور - لا وجه لمقارنتهم بحكام التتار أصلاً .. فضلا عن تشبيههم بجنكيزخان وهولاكو وغيرهما من طغاة التتار.

.. هل قوانين بلادنا تشبه ياسق التتار؟!

ونأتى إلى الحديث عن قوانين البلاد العربية والإسلامية .. والدساتير المعمول بها فى بلادنا .. حتى نعرف علاقتها بياسق التتار.

يلزمنا أولاً أن نتعرف على الياسق .. وأن نقتبس شيئًا من نصوصه .. ولذلك نعود إلى العلامة ابن كثير رحمه الله[1] .. ونستخلص من حديثه عن الياسق النقاط التالية:

الياسق عبارة عن كتاب مجموع من خليط من الشرائع والأحكام، وضعه جنكيزخان من مجرد نظره وهواه وما توارد على خاطره .. فصار فى أتباعه شرعًا متبعًا مقدمًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

معظم الأحكام الواردة فى الياسق من عند جنكيزخان من محض تأليفه واختراعه .. وقليل من هذه الأحكام استقاه من الملل الأخرى كاليهودية والنصرانية والإسلام دون أن يعمد إليها قصدًا .. فهو لا يؤمن أساسًا بأى دين .. وإنما جاءت اتفاقًا[2].

كان جنكيزخان يوهم أتباعه أن الوحى ينزل عليه من السماء، وأنه هو الذى يلقى على لسانه أحكام الياسق، فكان يأمر أتباعه أن يكتبوا ما يملى عليهم.

النصوص الواردة فى الياسق لا ضابط لها ولا رابط .. وهى إلى التخاريف أقرب منها إلى القواعد والنصوص القانونية .. ومن قرأ بعض هذه النصوص دون أن يعلم مصدرها ظنها بعض كلمات الطغاة الجبارين الذين لا عقل لهم ولا حكمة عندهم، أو أقوال بعض البلهاء والمجانين.

* ومن هذه النصوص مثلاً :

---

(١) راجع البداية والنهاية (١٣/١١٤) وتفسير ابن كثير

(٢) كان وضع جنكيزخان لبعض أحكام الشرائع السابقة فى كتابه الياسق تأثرًا طبيعيًا منه بثقافات هذه الأديان التى وجدت فى عصره .. فهو لم يضعها فى الياسق تعظيمًا لها، أو تعبدًا لله بها .. ولكنها وردت على ذهنه وخاطره إذ كانت أحكامها شائعة ومشهورة بين الناس.

- من تعمد الكذب قتل.

- من دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل.

- من بال فى الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل.

- من أطعم أسيرًا قتل .. ومن رمى إلى أحدٍ شيئًا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده.

- من أطعم أحدًا شيئًا فليأكل منه أولاً، ولو كان المطعوم أميرًا لا أسيرًا.

- من أكل ولم يطعم من عنده قتل.

- من ذبح حيوانًا ذبح مثله .. بل يشق جوفه ويناول قلبه بيده، يستخرجه من جوفه أولاً.

هذا بعض ما جاء فى كتاب الياسق الذى اتخذ التتار منه شريعة حاكمة وقانونًا معصومًا مقدسًا .. فما كان أحدهم ليجرؤ على مخالفته، أو يملك حق معارضته.

فهل للقوانين الموجودة فى بلادنا اليوم أدنى صلة بهذا الهراء؟!

إن قوانين اليوم لم يزعم أصحابها أنها مقدسة أو معصومة .. بل كثيرًا ما تخضع للتبديل والتغيير والتطوير .. ولا يجد أحد غضاضة فى نقدها والطعن فى صلاحيتها، بل والمطالبة أحيانًا بتعديلها.

فأين تلك القوانين من قوانين الياسق المعصومة، التى يزعم أصحابها أنها نزلت من السماء؟!

إن من لديه أدنى معرفة بدساتير بلاد المسلمين اليوم، والقوانين المطبقة فى أرضهم، سيدرك بكل سهولة مدى اختلافها عن ياسق التتار .. ولن يصعب عليه ملاحظة البون الشاسع بينها وبين تخاريف الياسق المذكورة سابقًا.

وهذا يجعل من قياسها على الياسق وتسميتها باسمه أمرًا مجانبا للصواب .. وبعيدًا عن الموضوعية والإنصاف.

ولماذا نذهب بعيدًا .. فلنضرب مثالاً حيًّا من واقعنا .. ولنأخذ الدستور المصرى مثالاً لدساتير بلاد المسلمين اليوم .. فتعالوا بنا نلقى الضوء على بعض مواده .. ونعقب الحديث عنه بمطالعة

بعض نصوص القانون المصرى .. لنرى الفرق الهائل بينها وبين الياسق مع ما فيها من قصور وابتعاد فى بعض جوانبها عن شريعة الله.

وأول ما يطالعنا من ذلك، ما ينص عليه الدستور المصرى[1] في المادة الثانية منه أن:

الإسلام هو دين الدولة .. واللغة العربية لغتها الرسمية .. والشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع.

ولعل الكثيرين لا يدركون أهمية هذا النص .. ولا يدركون مغزى كلماته ومرمى معانيه .. مع أن هذا النص من أهم وأعظم نصوص الدستور المصرى ..

فهو يجعل من الدين الإسلامى عنوان الدولة.

ومن اللغة العربية – لغة القرآن ولغة أهل الجنة – رمز هويتها المحفوظة المصونة.

أما كون الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .. فهو يحتم على المشرع فى حال وضعه لأى قانون بعد هذا التعديل (أى منذ عام ١٩٨٠م) أن يقف عند حدود ثوابت الشريعة الإسلامية .. وأن يعمل فى إطار مبادئها العامة ولا يتعداها فى المسائل القطعية بالذات .

ويكفى أن هذا النص الدستورى يكفل الحق فى الطعن دستوريا فى أى قانون يصدر بعد هذا التاريخ ويكون مخالفًا للشريعة الإسلامية .. كما يقضى بسقوطه ومنع تنفيذه.

وهذه المعلومات ربما تكون خافيه على الكثير من الشباب المسلم .. ولكنها جد مهمة لأنها تساعد فى رسم الصورة الحقيقية للواقع دون تهويل أو تهوين.

إذا كان هذا هو ما ينص عليه الدستور المصرى .. ويقرر بموجبه اعتبار الشريعة الإسلامية هى مرجعية التشريع فى الدولة .. فأى وجه للشبه بين هذا الدستور وبين الياسق؟!

(١) يقول فقهاء القانون : إن القاعدة الدستورية المتضمنة فى مواد الدستور تسمو على التشريع الصادر من البرلمان، بل تسمو على كل القوانين المعمول بها فى البلاد .. كما يعتبرون الدستور هو الأساس الذى يقوم عليه بناء الحكومة كلها، لأنه أسمى التشريعات.

وهل كان الياسق يعتبر الإسلام دين الدولة .. ويجعل من الشريعة الإسلامية مصدرًا -ولو هامشيًّا أو متأخرا - للتشريع؟!

وكيف تصح التسوية بين دستور يعلن صراحة التزامه بشريعة الإسلام وبين آخر لا يعرف أى دين من الأديان له طريقًا - فضلاً عن دين الإسلام؟!

ومن اللافت للنظر أن هذا النص السابق من الدستور المصرى قد انعكس أثره على بقية القوانين ..

ففى المادة الرابعة من قانون الأحزاب المصري .. وهى المادة التى تحدثت عن شروط تأسيس الأحزاب المصرية - كان أول شرط للسماح بتأسيس حزب من الأحزاب السياسية هو عدم تعارض مقومات الحزب أو مبادئه أو أهدافه أو برامجه أو سياساته. أو أساليبه فى ممارسة نشاطه مع مبادئ الشريعة الإسلامية باعتبارها المصدر الرئيسى للتشريع[1].

أى أن هذا النص يكفل للمجتمع ثبات قيمه ومبادئه والحفاظ على هويته وتوجهه .. وعدم السماح لأى حزب من الأحزاب بالإخلال بتلك الثوابت المنبثقة من مبادئ الشريعة الإسلامية.

فهل كان الياسق مهتمًا بذلك؟!

وهل كانت نصوصه قائمة على حراسة الهوية الإسلامية، وتجريم ومعاقبة كل من يخرق ثوابت الدين؟!

بل إن هناك نصوصًا فى قانون العقوبات المصرى - الذى يخالف أكثره الشريعة - تجرم الطعن فى العقيدة الإسلامية .. أو الاستهزاء بشىء من شعائر الدين بل وتحكم بالسجن على كل من يدعى النبوة مثلاً، أو يطعن فى القرآن الكريم.

وإذا كانت نصوص الياسق لم تلتفت للدين أصلاً، ولم تعر حرمته أى اهتمام .. فبأى وجه إذن صحت مقارنته بقوانين بلاد المسلمين اليوم؟!

---

(١) وهذا لا يعنى ضرورة أن تكون الأحزاب السياسية أحزابًا دينية كما قد يظن البعض ، ولكن المقصود أن تكون أحزابًا سياسية تلتزم بثوابت الدين وقطعياته .. ولاتتناقض مع دين البلاد ودين الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى.

إن ما يجهله كثير من الشباب المسلم - بل وقد يستغربه - رغم كونه من حقائق الواقع أن القوانين المعمول بها فى مصر - باستثناء قانون العقوبات - تتفق فى معظمها مع شريعة الإسلام .. وأنه لم يعد بإمكان أحد المشرعين - أيًا كانت مكانته - استصدار قانون مخالف للشريعة منذ عام ١٩٨٠م .. وبعد التعديل الدستورى للمادة الثانية من الدستور.

ولكى تتضح الصورة أكثر يمكننا القول بأن القوانين المصرية تنقسم من حيث اتفاقها مع الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام(١).

القسم الأول : قوانين منبثقة من الشريعة الإسلامية .. مثل قوانين الأسرة، وقوانين الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والخلع والنفقة والميراث وغيرها.

القسم الثانى: قوانين متفقة مع الشريعة الإسلامية .. مثل القوانين المدنية، والجوية والبحرية، وجميع القوانين المنظمة لشئون الحياة مثل قوانين الإدارة المحلية، وقوانين الجامعات والمرور وغيرها.

وهذان القسمان يشكلان أغلبية القوانين المصرية.

القسم الثالث: وهو المخالف للشريعة .. ويشتمل على الحدود والجنايات - أو ما يسمى بقانون العقوبات - وهذا القانون رغم مخالفته للشرع إلا أنه يتفق مع الشريعة فى تجريم المحرمات القطعية التى جرمها الإسلام(٢) ، كالقتل، والسرقة، والخمر والمخدرات والقمار .. وإن كان لم يلتزم بالعقوبات المقدرة شرعًا لتلك المحرمات.

فهل يصح بعد ذلك قياس تلك القوانين على الياسق الذى هو محض أهواء وضعها طاغية لا يلتزم بشريعة و لا يتقيد بدين؟!

---

(١) هذا التفسيم هو مجرد توصيف موضوعى لواقع القوانين فى مصر كما هى على الحقيقة: وهو يبين خطأ القول بمخالفة كل القوانين لشريعة الإسلام .. وهذا القول فيه منافاة للعدل والإنصاف .. كما أنه يجافى الواقع والحقيقة.

(٢) للأسف لم يستثن من ذلك إلا الزنا .. فرغم كونه من المحرمات القطعية .. ولكن القانون المصرى لا يجرمه فى جميع حالاته، بل يجرمه فى بعض حالاته فقط ونسأل الله تعالى أن ييسر للمخلصين من أهل التشريع تعديل هذا النص وغيره من النصوص القانونية لتكون موافقة للشريعة الإسلامية جملة وتفصيلاً.

إن العاطفة الدينية فى بلادنا لا تخطئها العين المتأملة .. وتعظيم الناس فى أوطاننا للشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية سمة غالبة لا يضل عنها البصر الثاقب .. حتى أن هذه السمات قد صبغت البروتوكول الرسمى لبلاد المسلمين اليوم بصبغتها المميزة.

فنجد مثلاً فى مصر أن البروتوكول يلزم رئيس الدولة بحضور صلاة العيدين وغيرهما من المناسبات الإسلامية . مثل ذكرى غزوة بدر الكبرى، وذكرى الهجرة النبوية، والمولد النبوى، وذكرى الإسراء والمعراج .. وغيرها من المناسبات التى تبقى على الروح الإسلامية حية فى ضمير الأمة ووجدانها .. وفى هذه المناسبات يحضر رئيس الدولة بنفسه، أو ينيب عنه من يحضر بدلاً منه.

قد يستهين البعض بمثل هذه الأمور .. ويعتبرها مظاهر شكلية فارغة من المضمون .. بل يعتبر – بنظرة سطحية – وجودها مثل عدمها لا فرق بين الحالين.

ونقول ، حتى ولو كانت تلك الأمور من قبيل المظاهر، فوجودها بلا شك أولى من عدمها .. مع أن المضمون والجوهر أهم وأولى .. ولكن: ما لا يدرك كله لا يترك جله .. وإن عدمنا الجوهر والمضمون، فلا أقل من المحافظة على الشكل والمظهر حتى حين.

ولو لم يكن لذلك المظهر من فائدة سوى إظهار هوية الدولة وتعزيز روح الإسلام فيها لكفى .. ولكن آثارًا خطيرة قد تترتب على غياب تلك المظاهر والأشكال.

إننا ندعو من يستهين بتلك المظاهر لإلقاء نظرة على بلد مثل تركيا .. فسوف يرى بعينه أثر غياب الشكل بعد افتقاد المضمون .. وسيطالع بنفسه غربة الدين فى شعب مسلم عريق .. ولكن عندما أفل نجم كثير من المظاهر الإسلامية فى سمائه، لم يعد هناك ما يذكر بأمجاده .. وصارت معالم دينه وعقيدته غريبة فى حسه، ومجافية لمشاعره.

فهل ذلك خير .. أم بقاء تلك المظاهر على الأقل حية فى نفوس المسلمين؟!

فلعلها تشدهم وتحدوا أرواحهم نحو تاريخ أمتهم وسابق عزتهم كل وقت وحين

* وبعد ذلك كله يحق لنا أن نتساءل:

هل كل زعماء التتار يحرصون على تلك المعانى ويضعونها فى بؤرة اهتمامهم؟!

وهل كانت دولة التتار تفسح مجالاً لمثل هذه البروتوكولات؟

وإذا كانت قوانين بلاد المسلمين ودساتيرهم فى هذا الزمان تختلف اختلافًا جذريًّا عن الياسق .. سواءً فى الأسس والمنطلقات، أو فى المصادر والمرجعيات، بل حتى شكلاً وموضوعًا.

فبأى علة جامعة صح قياسها على ياسق التتار؟

ألا يحتاج مثل هذا القياس الغريب إلى وقفة متأنية وإعادة النظر فيه؟!

.. أحوال المسلمين اليوم .. هل تقارن بحال التتار؟

ونواصل الرحلة سويًا عبر الزمان .. ونتوقف فى محطة جديدة من محطات المقارنة بيننا وبين التتار.

ونطرح سؤالنا ونقول:

ما مدى التشابه بين حال التتار، وبين حال المسلمين فى هذه الأيام؟

وهل قياس جنود المسلمين وجيوش بلادهم اليوم على جند التتار ومعسكرهم قياس صحيح؟

سنترك الإجابة على ذلك لحقائق التاريخ، وشواهد الواقع .. فهى التى ستفصل لنا هذه المسألة ..وتبين لنا فيها وجه الصواب.

ونبدأ بحقائق التاريخ نستعرض من خلالها سريعًا أحوال التتار، جندًا، وشعوبًا، ومعسكرًا.. ومن مجمل الأوصاف التى ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن كثير .. نلخص فيما يلى أحوال التتار[1]:

عندما دخل التتار بلاد الشام لأول مرة عام ٦٩٩ هـ أعطوا الناس الأمان، وقرئ على المنبر بدمشق .. إلا أنهم نقضوا العهد، وسبوا[2] من ذراري المسلمين ما زاد عن مائة ألف.

وفعلوا ببيت المقدس ونابلس وحمص وغيرها مالا يعلمه إلا الله حتى قيل إنهم فجروا بخيار نساء المسلمين فى المساجد كالأقصى والأموى وغيرهما.. كما هدموا بعض المساجد.

ليس فى معسكرهم مؤذن ولا إمام .. وهم فى بلادهم لا يحجون البيت الحرام .. والغالب على المسلمين منهم عدم الصلاة، وعدم أداء الزكاة.

ليس معهم فى دولتهم إلا من كان شر الخلق .. إما زنديق منافق لا يعتنق دين الإسلام فى الباطن .. أو هو من شر البدع كالرافضة والجهمية والاتحادية .. وإما من هو من أفجر الناس وأفسقهم.

---

(١) راجع البداية والنهاية (جـ ١٣)، وكتاب : فتوى التتار - دراسة وتحليل للمؤلف.

(٢) أى أسروا نساء المسلمين وأطفالهم.

يسوون بين رسول الله ﷺ وهو أكرم الخلق على الله تعالى .. وبين جنكيزخان رغم أنه ملك كافر مشرك من أعظم المشركين كفرًا وفسادًا وعدوانًا.

يقاتلون عن ملك جنكيزخان .. فمن دخل فى طاعته جعلوه ولياً لهم وإن كان كافرًا .. ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوًا لهم، ولو كان من خيار المسلمين .. ولا يقاتلون عن الإسلام.

ويعظمون ما سنه لهم هذا الملك الكافر .. وما شرعه بظنه وهواه .. حتى أنهم يقولون لما عندهم من المال: هذا رزق جنكيزخان .. ويشكرونه على أكلهم

يجعلون دين الإسلام كدين اليهود والنصارى .. وأن هذه كلها طرق إلى الله بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين .. بل إن منهم من يرجح دين اليهود أو دين النصارى .. وإن كان هناك من يرجح دين الإسلام.

وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت .. ولا يحرمون شيئًا .. ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات.

لم يدخلوا بلدًا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلين والرجال .. وكثيرًا من النساء والأطفال .. وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه .. وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه .. حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيشعلون فيه النار وهم ينظرون إليه..

ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه .. وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع.

وكانوا يتخذون من أسارى المسلمين فى حروبهم دروعًا بشرية .. فكانوا يقاتلون بهم، ويحاصرون بهم .. وإن لم ينصحوا (أى يدلوهم على عورات المسلمين ونقاط ضعفهم) فى القتال قتلوهم.

وكانوا يفجرون بنساء المسلمين، ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن على الأجنة.

وبالجملة فما من نفاق وزندقة وإلحاد إلا وهى داخلة فى أتباع التتار .. لأنهم من أجهل الخلق وأقلهم معرفة بالدين، وأبعدهم عن اتباعه .. وهم من أعظم الخلق اتباعًا للظن وما تهوى الأنفس.

وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن كثير فى وصفهم .. فقد كانوا بالفعل قومًا جهالاً

متخلفين .. لم يعرفوا معنى الحضارة والتقدم .. بل كان أكثر ما يناصبونه العداء: العلم والعلماء، والكتب العلمية.

فقد أحرقوا عند دخولهم بغداد أعظم مكتبة على وجه الأرض حينئذ .. وألقوا بالكتب فى نهر دجلة .. فأضاعوا على المسلمين تراثًا ضخمًا من علومهم ومعارفهم .. وربما كان ذلك سببًا فى حالة الركود العلمي والجمود الذى خيم على الأمة الإسلامية بعدها زمنًا طويلاً.

ونختم هذه النبذة من سيرتهم الخبيثة بذكر طرف من نازلة النوازل التى حلت بساحة المسلمين على أيديهم .. وهى دخولهم بغداد، وانهيار دولة الخلافة العباسية تحت سنابك خيولهم بقيادة ملكهم هولاكو.

يقول ابن كثير رحمه الله : «ووصل - أى هولاكو - بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ... ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان .. وقد اختلف الناس فى عدد من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة .. فقيل: ثمانمائة ألف .. وقيل : ألف ألف وثمانمائة ألف (أى مليون وثمانمائة ألف) .. وقيل : بلغت القتلى ألفى ألف نفس (أى مليونين) .. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .. وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم .. ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا .. وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات عدة شهور ببغداد»[1].

وقد سجل العلامة ابن الأثير خبرهم فى كتابه «الكامل» .. وهو فى غاية التأثر بهذا الحدث المروع .. حيث قال : «هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الليالى والأيام عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين.. فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم، وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا .. ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج .. وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك

(١) البداية والنهاية(١٣/١٨٧-١٨٨) ط - دار الإيمان.

من خالفه .. وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة .. وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها».

والآن .. وبعد هذا العرض المحزن الأليم لحال التتار .. والذى هيج فى النفس الشجون والأحزان.. لابد أن الصورة قد اتضحت .. وأنه لا وجه مطلقًا لمقارنة المسلمين اليوم بالتتار شعوبًا وجنودًا وحكامًا .. فبين الحالين من الاختلاف ما بين السماء والأرض.

فأى جيوش المسلمين اليوم ذاك الذى يستبيح أفراده هدم دور العبادة من مساجد وغيرها؟! . أو الزنا بنساء المسلمين فى أطهر بقاع الأرض وهى بيوت الله؟!

ومن منهم يعتمد فى حروبه سياسة الإبادة الجماعية؟! أو يستخدم أسراه دروعًا بشرية؟! أو يسعى لقتل المدنيين عمدًا من شيوخ ونساء وأطفال؟!

إن جيوش العالم اليوم بأسرها مهما بلغ طغيانها لا تجرؤ على مثل هذه القبائح - لا جيوش المسلمين فحسب - ولو قام بعض جنودها بمثل هذه الأفعال فإن ذلك يكون خفية وعلى استحياء وحذر من أن توصف بانتهاك حقوق البشر وإهدار آدميتهم .. أو تدان بمخالفة الأعراف الدولية، والإخلال بمواثيق جنيف لمعاملة أسرى الحرب .. وحتى بعد أن تثبت هذه التهم ضد إحدى الدول، فإنها تسعى جاهدة للتنصل منها، والتبرؤ ممن قام بارتكابها[1].

رغم أن هذه الانتهاكات قد لا تساوى شيئًا بجوار ما ارتكبه التتار من فظائع وأهوال.

وهل جيوش المسلمين اليوم ليس فى معسكرهم مؤذن ولا إمام كما كانت كذلك جيوش التتار؟!

أو أن مسلمى اليوم يغلب عليهم عدم الصلاة، وعدم أداء الزكاة؟!

---

(١) كتبت هذه الكلمات فى خضم تفاعلات فضيحة سجن أبى غريب بالعراق .. والذى ارتكب فيه عدد من الجنود الأمريكيين انتهاكات سافرة بحق المعتقلين .. ورغم ذلك تحاول أمريكا نفى هذه الأعمال والتنصل من فاعليها قدر الإمكان .. كما تقوم بمحاكمة بعضهم ممن ثبت تورطه حتى لا يدينها العالم بممارسة التعذيب .. وذلك كله رغم أنها أقوى دولة فى العالم، ولا تجرؤ أى دولة على محاسبتها أو معاقبتها.

أو أن أكثرهم لا يحجون البيت الحرام؟!

إن واقع جيوش بلادنا اليوم ينطق بعكس ذلك تمامًا .. فلا تكاد سرية أو وحدة من وحدات الجيش تخلو من مكان للصلاة .. وقد خصص له من الجنود من يرفع الآذان ومن يؤم بقية الأفراد.

بل يمكننا القول إنه ما من موقع عمل رسمى فى الدولة اليوم إلا وقد خصص فيه مكان لأداء الصلاة .. ومساجد البلاد تعج بالراكعين الساجدين ولله الحمد.

كما أن تمسك ضباط وجنود أكثر البلاد العربية والإسلامية بدينهم وإسلامهم أمر مشاهد ومعلوم .. والعاطفة الدينية لا تزال تتأجج فى صدور معظمهم .. ولعل صيحة «الله أكبر» التى دوت فى سماء سيناء يوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ مازالت تتردد فى جنبات بلادنا.. وما زالت تذكر بانتصار جيش عربى مسلم قد سرت روح الإيمان فى عروق أفراده دفاقة قوية.

فأين هؤلاء الليوث الضوارى من أتباع جيش فاجر كافر، لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؟![1]

وحتى أولئك العصاة المقصرون من أبناء بلادنا يحبون دينهم وعقيدتهم .. وترى الواحد منهم مقيمًا على المعصية . ومع ذلك فقد يكون رقيق القلب، سريع الأوبة إن بلغه نصح مخلص صادق .. وترى مشاعر أمثال هؤلاء فياضة تجاه دينهم، وعواطفهم جياشة بحب الله وحب رسوله ﷺ، وتعظيم شعائر الدين ، اللهم إلا النذر اليسير النادر .. والنادر لا حكم له.

وتأمل كيف يعظم كل مسلم فى بلادنا رسول الله ﷺ .. وكيف يهيج الشوق والحنين بقلبه كلما تذكره ﷺ، فتجده لا يقدم عليه أحدًا من البشر .. بل حتى عوام المسلمين تفيض نفوسهم للنبى ﷺ تعظيمًا وإجلالاً .. وينشدون فى مدحه القصائد .. ويشدون إلى مسجده الرحال .. فشتان بين مسلمى اليوم وبين التتار الذين كانوا يسوون رسول الله ﷺ بملكهم الكافر الفاجر جنكيزخان.

إن روح التدين التى تسرى فى نفوس أبناء الشعب المصرى هى جزء لا يتجزأ من تكوينهم ..

(١) لم تسجل محاضر الشرطة فى مصر أى حادث سرقة مطلقا خلال فترة حرب أكتوبر .. فهل هذه صفات شعب يشبه التتار؟!!

وملمح بارز من ملامح شخصيتهم .. كما أنها سجية تلقائية لا تكلف فيها ولا افتعال .. ولو تحدثت مع أى مصرى ستجد كلمات الحمد والشكر لله تتردد على لسانه وفى ثنايا حديثه بصورة طبيعية .. وستجد قلبه دائمًا متعلق بربه فى أفراحه وأحزانه، وفى مسراته وابتلاءاته.

ولعل من الأمثلة القريبة إلى الأذهان ما كان يفعله معظم الرياضيين المصريين الذين فازوا ببعض المراكز المتقدمة فى أولمبياد أثينا ٢٠٠٤م. إذ كانت قاعات الألعاب الرياضية ترتج بصيحات الحمد والتكبير [١] .. وكان مدربوهم ينسبون الفضل دائمًا في توفيقهم لله تعالى قبل كل شىء.

حتى عائلات أولئك الرياضيين حين تتحدث عن أخلاقهم وأسباب نجاحهم دائمًا ما تعزو ذلك إلى تدينهم واستقامتهم وابتعادهم عن الوقوع فى المحرمات.

فهذه شريحة من المجتمع المصرى المتدين بطبعه وسجيته، وبفطرته السليمة النقية التى تنفر من الوقوع فيما حرم الله تعالى، وتهرع إلى الله دائمًا، لا سيما فى أوقات الشدائد والأزمات.

ولعل من النعم العظيمة التى حبا الله عز وجل بها العالم الإسلامى عمومًا ومصر خصوصًا، ذلك الصرح الدينى الشامخ على مر العصور .. والمتمثل فى الأزهر الشريف، الذى يعتبر أضخم موسسة إسلامية سنية فى العالم كله .. وهو ما يعطى بلادنا ثقلاً دينياً كبيرًا ..ويجعلها بحق منارة تهدى الحائرين إلى وسطية الإسلام وعظمته ما أولت الأزهر الشريف اهتمامها وعنايتها فى جميع المجالات.

إن القول بأن حال المسلمين اليوم يشبه حال التتار قول بينه وبين الحقيقة بعد المشرقين..

فهل مسلمو اليوم يسجدون للشمس إذا طلعت؟!

وهل يأكل أحد منهم الميتة أو ينهى عن ذبح الحيوان المأكول؟!

وهل فى المسلمين أحد يهوى الدمار والتخريب مثل التتار؟!

---

(١) ولعل من المشاهد التى لا تنسى : مشهد فوز المصارع المصرى «كرم جابر» بالميدالية الذهبية حيث خر ساجدًا لله بعد إعلان النتيجة .. وارتجت قاعة المصارعة بصوت تكبيره .. وقد تناقلت هذه الصورة جميع وسائل الإعلام فى جميع أنحاء العالم .. كذلك فعل غيره من الفائزين المصريين، ولانكون مبالغين إذا قلنا: إن الرياضيين المصريين هم الذين علموا غيرهم هذه اللفتة الإيمانية الطيبة.

أو يطأ بقدميه أخلاق الإسلام فى الحرب والقتال كما كان يفعل التتار؟!

إن العالم بأسره ليشهد للمسلمين بطهارة اليد، وسمو المعاملة .. وقد سجلت وقائع التاريخ بين المسلمين وأعدائهم كيف كان لسيوف المسلمين أخلاق أيما أخلاق .. وكيف امتزج قتالهم بالرحمة.. واستقامت طريقتهم بالعدل .. ومازال المسلمون كذلك .. ومازالت شريعتهم تدعوهم لمثل هذه الأخلاق الرفيعة السامية.

فهل يستوى أصحاب هذه السجايا مع أولئك الرعاع القتلة من التتار الذين لم يرعوا لله حرمة .. ولم يرقبوا فى المسلمين إلاً ولاذمة؟!

والذى نخلص إليه بعد هذه المقارنة التفصيلية أن قياس المسلمين اليوم على التتار هو قياس خاطئ.

وتشبيه حكام المسلمين اليوم بجنكيزخان هو تشبيه غير صحيح.

كما أن المقارنة بين القوانين المعمول بها اليوم فى ديار المسلمين وبين الياسق مقارنة مغلوطة، وبعيدة كل البعد عن جادة الصواب.

نقول هذا ونؤكده بكل قوة، رغم أن البعض قد يسئ بنا الظن .. وقد يقول على لساننا ما لم نقله .. وقد يدعى أننا نقر ونرضى ما فى قوانين اليوم من قصور .. أو أننا نبرر لحكام المسلمين اليوم أى مخالفة أو تقصير.

أو أننا نقول: إن مسلمى اليوم فى أحسن أحوالهم .. وإنهم قد بلغوا درجة الكمال ، وإنه ليس فى الإمكان أفضل مما كان.

وعلم الله أننا ما قصدنا شيئًا من ذلك كله، ولا أردناه .. وما كانت تلك الظنون لتمنعنا عن إبلاغ حق نعتقده ونراه.

فقد تعودنا - والحمد لله - منذ أمد بعيد على أن نصدع بما نراه حقًا دون أن نخشى فى الله لومة لائم.

وتعودنا ألا نكتم قناعتنا إرضاءً لأحد ولا ابتغاء مدح من أحد .. لا حاكما ولا محكومًا.

إننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذا القياس إنما هو قياس باطل مغلوط .. وهو قياس يضر بالحركة الإسلامية أشد الضرر . ويشوه وجه الحقيقة فى عيون أبنائها ..

ومن أجل ذلك تحدثنا عنه غير مبالين أرضىَ عنا الناس أم سخطوا.

تحدثنا عنه نصحًا للشباب المسلم الصادق .. وحرصًا عليه، وحبًّا له..

وحدبًا وإشفاقًا على بذله وعطائه أن ينفق فى غير فائدة .. أو يبذل فى غير ميدان.

لم نكتب هذه الكلمات مجاملة لأحدمن الحكام .. فالحكام يتغيرون ويتبدلون، ودين الله باق لا يتغير ولا يتبدل.

ونحن لا ننتظر من أحد من الناس شيئًا .. فالناس لا يملكون لأنفسهم شيئاً فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم .. وإنما ننتظر مرضاة الله وحده.

.. وختامًا.

يا شباب الإسلام، وحملة لوائه .. هذه موعظة مشفق محب .. ومقالة ناصح أمين .. يهفو قلبه إليكم .. وتغار نفسه على جهودكم أن تضيع سدى.

فمهلاً أيها الشباب المخلص الصادق .. فلا تحملنكم محبة الحق والغيرة على الدين على أن تجوروا فى أحكامكم .. ولا يجرمنكم تقصير أحد فى إقامة دين الله على ألا تعدلوا فى تحليل واقعكم. .. اعدلوا هو أقرب للتقوى.

واعلموا أن الخير كل الخير فى التجرد والإنصاف مع النفس ومع الآخرين ..

فلتدرسوا واقعكم دراسة واقعية بكل صدق وأمانة .. ولترسموا له صورته الحقيقية دون تهوين أو مبالغة .. فذاك خير وأجدى من تخيل صورة للواقع على غير حقيقته .. ثم الاشتباك معها، ومناصبتها العداء دون ضرورة شرعية..

ومن ثم تنفق الجهود والأعمار فى غير مجالها.

ولو وقفتم مع أنفسكم وقفة .. وحددتم معالم واقعكم لكان خيرًا لكم .. ولكان لجهودكم أوفر .. ولدينكم وأوطانكم أجدى وأنفع.